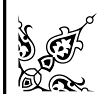


وَظِيفَةُ عُلَماءِ الدِّين

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ
محمد البشير الإبراهيمي
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
ورئيس تحرير جريدة البصائر الغراء

اعتنى به
عبدالإله بن عثمان الشايع




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعتني

الحمد لله القائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ " [المجادلة : ١١] ، وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير الذي لم يورث مالاً ولا درهماً ، وإنما ورّث العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر . أما بعد :

فقد أعلى الله منزلة العلماء بين العالمين ، وقرن طاعته بطاعتهم ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ " [النساء : ٥٩] .

وقال تعالى : + هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ " [آل عمران : ٧] .

وقال تعالى : + شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ " [آل عمران : ١٨] .

وقال تعالى : + وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ " [النساء : ٨٣] .

وقال تعالى: + وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ " [العنكبوت : ٤٣] .

وقال تعالى : +إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ " [فاطر :

٢٨] .

وقال تعالى : +قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ " [الزمر : ٩] .

ثم إن هذه رسالة لطيفة جمعت مقالين(١) لعالم ربّاني وناصح مشفق على أُمَّته هو العلامة محمد البشير الإبراهيمي ، تحدث فيها عن « **وظيفة علماء الدين** » ، وبيَّن الدور الواجب على العلماء تجاه أمتهم، وقارن بين علماء السلف وعلماء الخلف ، فجاءت هذه الرسالة جامعة بين أهمية الموضوع وروعة الأسلوب .

وكان الدافع لنشر هذين المقالين أهمية موضوعهما خاصة في هذا الوقت الذي كثر فيه أدعياء العلم والمتعالمون ، وقلَّ فيه العلماء الربانيون المصلحون، إلا أنه لا يزال هناك بقيةٌ باقية من العلماء الصادقين الذين حملوا الأمانة بأمانة ونشرو العلمَ بعلم .

وهذه دعوة صادقة للشباب بلزوم العلماء الصادقين، والأخذ عنهم، والتقرب إلى الله ﷻ بذلك.

ولم يكن لي جهدٌ في هذه الرسالة سوى اختيارها والتعليق باختصار على بعض المواضع فيها .

أسأل الله جل وعلا أن يعليَ مكانة العلماء، وأن يوفق شباب الأمة للنهل من معينهم، وأن يرحم كاتب هذه الرسالة وكل من سعى في نشرها.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

عبدالإله بن عثمان الشايع

١٤٢٧/٤/١هـ

ص.ب ٣٨٢٠٥٣

الرياض ١١٣٤٥

---

(١) كان الفضل للأستاذ محمد خير رمضان يوسف في تنبيهي على هذين المقالين، وذلك في كتابه « معجم المؤلفين المعاصرين » ٥٥١/٢.

ترجمة العلامة محمد البشير الإبراهيمي(١)

كتب العلامة الإبراهيمي ترجمة ذاتية لنفسه في مجلة المجمع العلمي بدمشق ، ثم لخص هذه الترجمة فقال /:

١- ولدتُ عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال عام (١٣٠٦هـ) الموافق للرابع عشر من شهر يونيو سنة (١٨٨٩م) .

٢- حفظتُ القرآن ومتون العلم الكثيرة وأنا ابن سبع سنين ، وتلقيت علوم الدين والعربية في بيت أسرتي على عمي القائم بتربيتي الشيخ محمد المكي الإبراهيمي ، وكان علاَّمة زمانه في العلوم العربية .

٣- مات عمي وأنا ابن أربع عشرة سنة ، بعد أن أجازني في العلوم التي تلقيتها عليه .

٤- وهبني الله حافظة خارقة ، وذاكرة عجيبة ، تشهدان بصدق ما يحكى عن السلف(٢) ، وكانتا معينتين لي في تحصيل العلوم في هذا السن.

٥- بعد موت عمي خلفته في إلقاء الدروس على تلامذته

---

(١) مصادر ترجمته :
مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٣٥/٢١-١٥٤ بقلمه . وترجمة بقلم الدكتور إبراهيم مدكور ١٢٩/٢١ ، ومجلة مجمع اللغة بدمشق ٤٥٤/٤٣ ، والمجمعيون ١٥٦ ، ودليل مؤرخ المغرب ٢٣٢/١ ، والإمام الرائد محمد البشير الإبراهيمي لمحمد الطاهر فضلاء ، والأعلام للزركلي ٥٤/٦ ، وترتيب الأعلام على الأعوام ٨٦٢/٢ ، ومعجم المؤلفين المعاصرين ٥٥٠/٢، وجمعت رسائله وكتاباته ومقالاته في كتاب « آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي » جمع وتقديم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في خمسة مجلدات من إصدار دار الغرب الإسلامي ببيروت عام ١٩٩٧م .

(٢) يعني ما يحكى عن الكثير منهم من سرعة الحفظ، وسعة المحفوظ، والروايات في ذلك كثيرة قد يظن بها المبالغة من قِبل الجهّال. ومن جهل شيئاً عاداه.

وغيرهم إلى أن جاوزت العشرين سنة.

٦- بيتنا عريق في العلم، خرج منه أفذاذ في علوم الدين والعربية في الخمسة قرون الأخيرة، بعد انحطاط عواصم العلم الشهيرة في المغرب.

٧- رحلت إلى المدينة أنا ووالدي مهاجرين؛ فراراً من الاستعمار الفرنسي، فكنتُ من مدرسي الحرم النبوي الشريف، وتلقيتُ فيها علم التفسير وعلم الحديث رواية ودراية، وعلم الرجال وأنساب العرب، ومكثتُ في المدينة قريباً من عشر سنين.

٨- ثم انتقلنا إلى دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى فكنت من أساتذة العربية في المدرسة السلطانية بها مدة سنتين في عهد حكومة الاستقلال العربي.

٩- بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رجعتُ إلى بلدي الجزائر، وبقيت فيها أنشر العلم في فترات متقطعة إلى سنة ١٩٣١ ميلادية، وكنت أحد اثنين يرجع لهما الفضلُ في تكوين جمعية العلماء، أنا وعبدالحميد بن باديس، وكنتُ في طليعة العاملين على إحياء العلوم الدينية والعربية بالجزائر من الابتدائية إلى العالية، وكنت أبرز المشيدين لأربعمائة مدرسة في مدن القطر الجزائري وقُراه، وفي طليعة المجاهدين في سبيل الإصلاح الديني وحرب التدجيل والابتداع في الدين، وبث الوعي القومي، و تصحيح الموازين الفكرية والعقلية في نفوس أفراد الشعب الجزائري.

١٠- بعد ظهور جمعية العلماء للوجود انغمستُ في أعمالها وتشكيلاتها، وانقطعت إلى العلم، وتأسيس مدارسه، ووضع برامجه، وكيلاً لها في حياة ابن باديس، ورئيساً لها بعد موته، على ما هو مفصل في الخلاصة.

١١- سنة ١٩٥٢ ميلادية رحلتُ إلى الشرق بتكليف من جمعيتي كان الباعث على هذه الرحلة أمران:

الأول: السعي لدى الحكومات العربية لتقبل لنا بعثات من أبناء الجزائر .

الثاني: مخاطبة حكومات العرب والمسلمين في إعانتنا مالياً، حتى تستطيع الجمعية أن تواصل أعمالها بقوة؛ لأن الميدان اتسع أمامها، والشعب الجزائري محدود القوة المالية، فإذا لم يُعنّا إخوانُنا فربما تنتكس حركتنا، وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا، وقد قدمتُ مصر، ثم زرت باكستان، والعراق، وسورية، والحجاز.

فأما قبول البعثات فقد حصلت فيه على الغرض، وأما الإعانة فقد كانت طفيفة، وقامت الثورة الجزائرية المباركة سنة (١٩٥٤) واستفحل أمرها، فانقطعت عن الجزائر.

١٢- تركت مسودات مؤلفاتي كلها بالجزائر، ولم أصحبها معي لتطبع، أو يطبع بعضها هنا (١) كما كنت آمل، لأني لم أشأ أن أخلط عملاً عمومياً للجزائر بعمل شخصي لنفسي.

وأنا أرجو للثورة الجزائرية التي شاركتُ في التمهيد لها، وتهيئة أسبابها ختاماً جميلاً، تنال الجزائر حريتها واستقلالها.

نفعنا الله بما علمنا وبما عملنا، إنه مجازي العاملين المخلصين.

محمد البشير الإبراهيمي

قلت: وتوفي رحمه الله عام ١٣٨٥هـ .

(١) يعني في مصر .

من كلماته رحمه الله[١]

- إذا فسد التصور فسد التصوير.
- إننا مرضى، ومن بلاء المريض رفق الطبيب به.
- خَدَّرَنا الغرب بالوطنيات الضيّقة؛ فأصبح كل فريق قانعا بجحر الضبّ ، يناضل بمثل سلاح الضب. وهيهات إذا مُزّقت الأطراف أن يُحفظ القلب.
- ضعف الضعيف لا يكون في سنَّة الله إلا زيادة في قوة القوي.
- العاقل من جارى العقلاء في أعمالهم في دائرة دينه ووجدانه.
- العالم الجبان في أمة عضو أشل، يؤود ولا يذود.
- العالم بمفهومه الديني في الإسلام قائد: ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة.
- علماء الخلف أقل من أن نسميهم علماء دين، وأقل من أن نسميهم علماء دنيا.
- علماء السلف كانوا دائما في أداء واجب يؤجرون عليه لا في أداء وظيفة ينتفعون بها.
- علماء السلف: كانوا يحكّمون دينهم في عقولهم، ويحكمون عقولهم في ألسنتهم، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل.
- علماء السلف: كانوا يَزِنون أنفسهم دائما بميزان الكتاب والسنة.. كما يفعل المفتونون بالجسمانيات في عصرنا هذا في وزن أبدانهم كل شهر.
- الفرق بين العرب وبين الغرب(نقطة)، وفيها كل السرّ، وفيها كل الشرّ.
- القبول جزاء من الله على الإخلاص يعجله لعباده المخلصين.
- كل نطقة تُمليها الظروف لا الضمائر تثمر سكتة عن الحق، ما من ذلك بُعُد.

---

(١) من كتاب: (موسوعة أطايب الكلم و أجمل التوقيعات) لفتحي بن فتحي الجندي. تحت الطبع.

- كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشًا في نفوسكم فهو زائل.. رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة.
- لَإن يسكت العاقل مختارًا في وقت يحسن السكوت فيه خير من أن ينطق مختاراً في وقت لا يحسن الكلام فيه.
- للآراء اقتتال يظهر فيه الشجاع القوي، كما للأناسي اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي.
- لو تباهت الأبنية المشيّدة بغاياتها، وتفاخرت بمعانيها؛ لأخرست المدرسة كل منافس.
- ليس من سداد الرأي أن يضيّع الضعيف وقته في لوم الأقوياء.
- المال الذي تنفقه في المحرمات يسوقك إلى النار، والمال الذي تبدده في الشهوات يسوقك إلى العار، والمال الذي تدخره للورثة الجاهلين تهديه إلى الأشرار، وتبوء أنت بالتبار والخسار.



وظيفة علماء الدين

وظيفة علمـــــاء الدين

لا تُوجد في الإسلام وظيفة أشرف قدراً، وأسمى منزلة، وأرحب أفقاً ، وأثقل تبعة ، وأوثق عهداً[(١)] ، وأعظم أجراً عند الله من وظيفة العالم الديني !

ذلك لأنه وارث لمقام النبوة[(٢)] وآخذٌ بأهم تكاليفها وهو الدعوة[(٣)] إلى الله، وتوجيه خلقه إليه، وتزكيتهم وتعليمهم،

---

(١) قال الله تعالى : +وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾" [آل عمران :١٨٧] .
قال العلامة الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسير هذه الآية : «الميثاق: هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب، وعلّمه العلمَ أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصاً إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يُبيِّنه ويوضح الحق من الباطل.
فأما الموفقون: فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفاً من إثم الكتمان.
وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم: فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم فلم يعبأوا بها ، فكتموا الحق ، وأظهروا الباطل تجرؤاً على محارم الله، وتهاوناً بحقوقه تعالى وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان +ثَمَنًا قَلِيلًا" وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق +فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ" ؛ لأنه أخس العوض والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلُّها ، فلَمْ يختاروا الدني الخسيس، ويتركوا العالي النفيس إلا لسوء حظهم وهوانهم ، وكونهم لا يصلحون لغير ما خُلقوا له » . انتهى. تيسير الكريم الرحمن (٢٦٨/١) ط. دار ابن الجوزي ، تحقيق سعد الصامل.

(٢) يشير المؤلف / إلى قول النبي × : « **العلماء ورثة الأنبياء** » . رواه أبوداود (٣١٥٧) ، والترمذي (٢٦٠٦) ، وابن ماجه (٢١٩) ، وأحمد (١٩٦/٥) وغيرهم .

(٣) قال تعالى : +قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

وترويضهم على الحق حتى يفهموهم ويقبلوه، ثم يعملوا به، ويعملوا له.

فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام قائدٌ، ميدانُه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة، وتفسيرهما العملي من فعل النبي × وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان أن ينسى نفسه، ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكي ويُعلِّم، وأن يقول الحق بلسانه، ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوة.

أما الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة فهي أن يبدأ بنفسه في نقطة الأمر والنهي[(١)]، فلا يأمر بشيء مما أمر به اللهُ ورسوله حتى يكون أول فاعل له، ولا ينهى عن شيء مما نهى الله ورسوله عنه حتى يكون أول تارك له، كل ذلك ليأخذ عنه الناس بالقدوة والتأسي أكثر مما يأخذون عنه بوساطة الأقوال المجردة والنصوص اللفظية؛ لأن تلاوة الأقوال والنصوص لا تعدو أن تكون تبليغاً، والتبليغ لا يستلزم الاتباع، ولا يثمر الاهتداء ضربة لازب، ولا يعدو أن يكون تذكيراً للناسي، وتبكيتاً للقاسي، وتنبيهاً للخامل ، وتعليماً للجاهل ، وإيقاظاً للخامل، وتحريكاً للجامد، ودلالةً للضال.

أما جَرُّ الناس إلى الهداية بكيفيةٍ تُشبِه الإلزام فهو في التفسيرات العملية التي كان المرشد الأول يأتي بها في تربيته

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ " [يوسف :١٠٨] .

(١) + قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ " [هود : ٨٨]، ولقول الرسول × : **«يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فيدور فيها كما يدور الحمار برحله فيقول له أناس...»** . رواه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (٥٣٠٥).

لأصحابه، فيعلمهم بأعماله أكثر مما يعلمهم بأقواله؛ لعلمه ـ وهو سيد المرسلين ـ بما للتربية العملية من الأثر في النفوس، ومن الحفز إلى العمل بباعث فطري في الاقتداء، وقد رأى مصداق ذلك في واقعة الحديبية حين أمر أصحابه بالقول فترددوا[١]؛ مع أنهم يعلمون أنه رسول الله، وأنه لا ينطق عن الهوى، ثم عمل فتتابعوا في العمل اقتداءً به وكأنهم غير من كانوا[٢].

كان الصحابة لاستعدادهم القوي لتحمل الإسلام بقوة يحرصون على أخذ مهمات العبادات من فعله ×، كما يحرصون على التمثل بأخلاقه والتقليد له في معاملته لله ومعاملته لخلقه، وعلى التأسي به في الأفعال والترك، وفي شؤون الدين والدنيا، لعلمهم أن الفعل هو المقصد والثمرة، وأن الأقوال في معظم أحوالها إنما هي أدوات شرح، وقوالب تبليغ، وآلات أمر ونهي، ووسائل ترغيب وترهيب، وأن في قول قائلهم: « **أنا أشبهكم صلاة برسول الله** »[٣] لدليلاً على تغلغل هذه النظرة في مستقر اليقين من بصائرهم، وأنهم كانوا

---

(١) تردُّد الصحابة ي لم يكن رداً للأمر وحاشاهم. وإنما كان من باب التماس حكم مغاير إذا كان ذلك ممكناً، أما إذا حُسم الأمر، ولم تكن هناك مندوحة عن الإذعان والانقياد فلا مفرّ من ذلك. وليس كما زعمت الروافض أن الصحابة كانوا يجتهدون مع النص، ويردون أمر النبي ×. وما مثلهم ي في ذلك إلا كمثل رجل مع أولاده المخلصين، قد يأمرهم بأمر خلاف ما يتمنون، فيبكون أو يتباكون بغية أن يغير رأيه ، فإن غيره فبها ونعمت، وإلا فليس أمامهم إلا السمع والطاعة والتسليم. وهذا ما كان منهم ي وأرضاهم.

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) مطولا في شأن الحديبية. وفيه:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ × لأَصْحَابِهِ : « **قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا** » قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنْ النَّاسِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَداً مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ، نَحَرَ بُدْنَهُ ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضاً غَمًّا.

(٣) مثال ذلك: حديث أبي هريرة عند البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٥٩٠،٥٩١).

يتشـددون فـي أخـذ الصـور العمليـة مـن أفعالـه × كمـا هـي، ويتحرجون من التقصير فيها، ومرماهم في ذلك أن العمليات المأخوذة من طريق العيان أقرب إلى اليقين وموافقة مراد الله منها، وبذلك تتحقق آثارها في النفوس.

وقد كانوا يفهمون العبادة بهذا المعنى: أنْ تعبد الله كما شرع على الوجه الذي شرع؛ فالكيفيات داخلة في معنى التعبد، لذلك لم يُحدث السلف زوائد على العبادات من أذكار وغيرها بدعوى أنها زيادة في الخير، كما عمل الخلف؛ وكانوا يفهمون يُسر الدين بمعناه السامي، وهو أنه لا إرهاق فيه ولا إعنات، وأنه ليس في المقادير الزائدة عن إقامة التكاليف أو في المعاذير الصحيحة العارضة للتكاليف، لا كما نفهمه نحن تساهلاً وتطفيفاً.

فَهِم علماءُ السلف الإسلامَ كاملاً بعقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه، وفهموا ما بين هذه الأجزاء من الترابط والتماسك ووحدة الأثر والتأثير، وأنها في حقيقتها شيء واحد، هو الدين، وهو الإسلام، وأن ضياع بعضها مؤذن بضياع سائرها، أو هو ذريعة له، فلا يقوم دين الله في أرضه إلا بإقامة جميعها، وإذا قال القرآن : +شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ " [الشورى : ١٣]. فمعنـاه إقامة جميعها، وأنه ليس من هذا الدين أن يصلي المسلم ثم يكذب، ولا أن يذكر الله ثم يحلف به حانثاً باللسان الذي ذكره به متقرباً إليه، ولا أن يمسك عن الطعام ثم يأكل لحوم الخلق، ولا أن يخاطب ربه +إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ " [الفاتحة : ٥] ثم يتوجه إلى غيره عابداً ومستعيناً فيما هو من خصائص الألوهية، ولا أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، ولا

أن يأمر الناس بالجهاد ثم يرضى لنفسه بأن يكون مع الخوالف، أو يبذل المال في سبيل العلم ثم يقبض يديه كأنه خارج من التكليف، أو بالبر وينسى نفسه، ولا أن يترخص في الحق إرضاءً لغويٍّ أو غنيٍّ، ولا أن يؤخر كلمة الحق عن ميقاتها حتى يضيع الحق.

وكـان كـل واحـد مـنهم يـرى أنـه مُستحفَظ علـى كتـاب الله، ومـؤتمن علـى سنة رسولــه فـي العمـل بهـا وتبليغهـا كمـا هـي؛ وحارس لهما أن يحرفهما الغالون، أو يزيغ بهما عن حقيقتهما المبطلـون؛ أو يعبث بهمـا المبتدعـة، فكل واحـد مـنهم حـذر أن يُؤتى الإسـلام من قِبَلـه، فهـو ـ لـذلك ـ يقظ الضـمير، متـأجج الشعور، مضبوط الأنفاس، دقيق الوزن، مرهف الحس، متتبـع لما يأتي النـاس ومـا يـذرون من قول وعمـل، سـريع الاستجابة للحـق إذا دعـا داعيـه، وإلـى نجدتـه، إذا ريـع سـرْبه أو طُـرق بالسِّر حِماه.

وكانوا يأخذون أنفسـهم بـالفزع لحـرب الباطـل لأول مـا تـنجم ناجمته، فلا يهدأ لهم خـاطر حتـى يوسعوه إبطـالاً ومحـواً، ولا يسكتون عليـه حتـى يستشـري شـره، ويستفحل أمـره، فتستغلظ جذوره، ويتبوأ من نفوس العامة مكاناً مطمئناً.

وكـانوا يـذكرون دائمـاً عهـد الله، وأنهـم أخـذ علـيهم ميثـاق الكتـاب أن لا يقولـوا علـى الله إلا الحـق[١] ، وإن الحـق هـو مـا به محمد عن ربه لهداية البشـر وصـلاح حـالهم، وكـانوا يزنُـون أنفسـهم دائمـاً بميزان الكتـاب والسـنة، فمـا وجـدوا مـن زيـغ أو عـوج قوّمـوه فـي الحـال بـالرجوع والإنابـة، كمـا يفعـل المفتونـون

---

(١) قال تعالى : + فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ " [الأعراف : ١٦٩] .

بالجسمانيات في عصرنا هذا في وزن أبدانهم كل شهر.

وكان العلماء يردون كل ما اختلفوا فيه من كل شيء إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا إلى قول فلان، ورأي فلان، فإذا هم متفقون على الحق الذي لا يتعدد(١).

ولقد أنكر مالك على ابن مهدي ـ وهو قرينه في العلم والإمامة ـ عزمه على الإحرام من المسجد النبوي، فقال ابن مهدي: إنما هي بضعة أميال أزيدها. فقال مالك: أوَما قرأت قوله تعالى: +فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" [النور : ٦٣] وأيّة فتنة أعظم من أن تسول لك نفسك أنك جئت بأكمل مما جاء به رسول الله ×؟ أو كلاماً هذا معناه ... ثم تلا قوله تعالى: +ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" [المائدة : ٣] الآية، وقال كلمته الجامعة التي كأن عليها لألاء الوحي، وهي قوله: « **فما لم يكن يومئذٍ ديناً فليس اليومَ بدين** » .

وكانوا يحكّمون دينهم في عقولهم، ويحكّمون عقولهم في ألسنتهم، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل، ويعدون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرف، ومع المجملات ميزاناً للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال، ويميز بين الخير والشر، وبين خير الخيرين، وشر الشرين، لذلك غلب صوابهم على خطئهم في الفهم وفي الاجتهاد، ولذلك أصبحت فهومهم للدين وسائل للوصول إلى الحق، وآراؤهم في الدنيا موازين للمصلحة، وما هم بالمعصومين، ولكنهم لوقوفهم عند الحدود، وارتياض نفوسهم على إيثار رضى الله، وشعورهم بثقل عهده،

---

(١) قال تعالى : + يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩ " [النساء : ٥٩] .

وفقهم الله لإصابة الصواب.

وكانوا يزنون الشدائد التي تصيبهم في الطريق إلى إقامة دين الله بأجرها عنده، ومثوبتها في الدار الآخرة، لا بما يفوتهم من أعراض الدنيا، وسلامة البدن، وخفض العيش، وراحة البال، فكل ما أصابهم من ذلك يعدونه طريقاً إلى الجنة ووسيلة إلى رضى الله.

وكانوا ملوكًا على الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرونهم على باطل ولا منكر، ولا يسكتون لهم على مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسخط الله.

بتلك الخلال التي دللنا القارئ عليها باللمحة المنبهة قادوا الأمة المحمدية إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .. وبِسَير الأمراء المصلحين على هداهم سادوا أغلب الجزء المعمور من هذه الأرض بالعدل والإحسان، إذ كان الأمير في السلم لا يصدر إلا عن رأيهم، والقائد في الحرب لا يسكن ولا يحرك إلا بإشارتهم في كل ما يرجع إلى الدين، فجماع أمر العلماء إذ ذاك أنهم كانوا يقودون القادة، وما رفعهم إلى تلك المنزلة بعد العلم والإخلاص إلا أنهم كانوا حاضرين غير غائبين.

كانوا يحضرون مجالس الرأي مبشرين شاهدين، وميادين الحرب مغيرين مجاهدين، طَبَعهم الإسلام على الشجاعة بقسميها: **شجاعة الرأي وشجاعة اللقاء** ، فكانوا يلقون الرأي شجاعاً فيقهر الآراء، ويخوضون الميادين شجعاناً فيقهرون الأعداء.. وللآراء اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي، كما للأناسي اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي.

والعالم الجبان في أمة عضو أشلّ، يؤود ولا يذود، ولعمري إن في اتحاد صف الصلاة وصف القتال في الاسم والاتجاه والشرائط لموقف عبرة للمتوسمين.

صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يَدُعُّ النفوسَ المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي، وقبول الكلام من العالِم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل، وأخضع صولة الملك في رعونتها لأحمد بن عبدالسلام(١)، وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما الحميدة لآية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره.

نضَّر اللهُ أولئك الرجال الذين كانوا يوم الرأي صدور محافل، ويوم الروع قادة جحافل، وفي التاريخ محققين لنقطة الاقتراب، بين الحرب والمحراب، فلقد كانوا يقذفون بكلمة الحق مجلجلة على الباطل، فإذا الحق ظافرٌ، وإذا الباطل نافرٌ، ويقذفون بعزائمهم في مزدحم الإيمان والكفر؛ فإذا الإيمان منصور، وإذا الكفر مكسور؛ ووصل الله ما انقطع منا بهم، بإحياء تلك الخلال، فما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من بعث تلك الشجاعة، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحرمناه ـ بسوء تربيتنا ـ من خلالهم .. ولعمري إن تلك القوى لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشعل لم تنطفئ، فهي في كنف القرآن آمنة؛ وما دامت نفحات القرآن تلامس العقول الصافية، وتلابس النفوس الزكية، فلابد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب.

---

(١) المقصود هو: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني /.

ومـا زلنـا نلمـح وراء كـل داجيـة فـي تـاريخ الإسـلام نجمـاً يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يخرق، من عـالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدي السارين المدلجين إلى حين.

ومـا علمنـا فيمن قرأنـا أخبـارهم، وتقفينـا آثـارهم من علمـاء الإسلام، مَثلاً شروداً في شجاعة النزال بعد الحـافظ **الربيع بن سالم** عـالم الأنـدلس ، بل أعلـم علمائها فـي فقه السنة لعصـره؛ فقد شهد وقعة تعد من حوامد الأعمار، فبذَّ الأبطال المناعير[1]، وتقدم الصفوف مجلياً ومحرضـاً، والحـرب تقذف تيـاراً بتيـار، حتى لقي ربه من أقرب طريق.

ولا علمنا فيهم مثالاً في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمـام أحمد بن تيميـة ـ وعصراهما متقاربـان ـ فقد شنَّها حرباً شعواء علـى البـدع والضـلالات، أقـوى مـا كانـت رسـوخاً وشـموخاً، وأكثـر اتباعـاً وشـيوخاً، يظاهرهـا الـولاة الفاسـقون، ويؤازرهـا العلماء المتساهلون المتأولون.

وقـد ادَّخـر الله لهـذا العصـر الـذي تـأذن فجـر الإسـلام فيـه بـالانبلاج الواحـد الـذي بـذَّ الجميـع فـي شـجاعة الـرأي والفكـر، وقوة العلم والعقل، وجرأة اللسان والقلب، وهـو **محمد عبده**[2]، فهزَّ النفوس الجامدة ، وحرّك العقول الراكدة، وتـرك دويـاً مـلأ سمع الزمان، وسيكون لـه شأن.

---

(١) من نعر نعيراً : صاح وصوّت. انظر القاموس ص ٦٢٤.

(٢) محمد عبده : مفتي الديار المصرية ، من آل التركماني، ولد عام ١٢٦٦، كان لـه فضائل في مقاومة التصوف الخرافي والتقليد المقيت، كما أن لـه معايب في اتجاهه إلـى المذهب العقلانـي الـذي يعـارض النصوص الصحيحة الصريحة بـآراء العقول وأهوائها، وقد كـان لـه تساهل مع المستعمر، وتـأثر بـالنموذج الغربي، مما سهل لمن تبعه وقلده التشبه بـالغربيين وتقليدهم في كثير من الأمور التي تخالف الشرع الحنيف. توفي في الإسكندرية عام ١٣٢٣هـ . انظر الأعلام ٢٥٢/٦ .

أما علماء الخلف فهم أقل من أن تسميهم علماء دين، وأقل من أن تسميهم علماء دنيا !

أما الدين فإنهم لم يفهموه على أنه نصوص قطعية من كلام الله، وأعمال وأقوال تشرح تلك النصوص من كلام رسول الله ×، وفعله، ومقاصد عامة تؤخذ من مجموع ذلك ويرجع إليها فيما لم تفصح عنه النصوص، وفيما يتجدد بتجدد الزمان؛ لم يفهموه على أنه عقائد يتبع العقل فيها النقل، وعبادات كملت بكمال الدين فالزيادة فيها كالنقص منها، وأحوال نفسية صالحة هي أثر تلك العقائد والعبادات، وآداب تُصلِح المعاملة وتصححها بين الله وبين عباده، وبين العباد بعضهم مع بعض؛ بل فهموا الدين وأفهموه على أنه صور مجردة خالية من الحكمة، وحكموا فيه الآراء المتعاكسة والأنظار المتباينة من مشايخهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى اطراح النصوص القطعية إلى كلام المشايخ، وإلى سد باب الفكر بإقليد التقليد، وتناول حقائق الدين بالنظر الخاطئ والفهم البعيد.

والفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري، فالذي يعطله أو يحجر عليه جانٍ مُجرم، كالذي يعطل نعمة العقل، ولعمري أن سد باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي، وأشنع جريمة ارتكبها المتعصبون للنزعات المذهبية.

وأما الدنيا فليسوا علماء دنيا بالمعنى الأعلى لهذه الكلمة(١)؛ وهو أن يعالجوا الكسب بطرق علمية، ويدرسوا وسائل الثراء بعزائم صادقة، ويضربوا في الأرض لجمع المال بكد اليمين، وعرق الجبين.

---

(١) قال العلامة طه الساكت /: «لا تُسمِّ هؤلاء علماء الدين؛ لأنهم لا يعلمون ظاهراً منها ـ كما يعلم المخترعون المستكشفون ـ ولكن سمِّهم عُبَّادها، لأنهم أحرص الناس عليها؛ وأشدهم خشوعاً لها. وحسبهم مِن مقت الله لهم، أن صرَف القلوب عنهم، لما انصرفت عن قلوبهم ! وهم يوم القيامة أشدّ مقتاً وخزياً ... إلخ » من ذخائر السنة النبوية ٥٣/١.

أما المعنى السخيف لهذه الكلمة فهم أوفر الناس حظاً منه؛ فهم يطلبون المعيشة بأخس وسائلها، فيحصلون منها على فتات الموائد يشترونه بدينهم وماء وجوههم، هانوا على أنفسهم فهانوا على الله وعلى الناس، فرضوا بالدُّونِ والهون.

نعني بعلماء الخلف هذه العصابة التي نشهد آثارها ونسمع أخبارها، ونحددها تحديدها زمنياً بمبدأ المائة العاشرة للهجرة من يوم بدأت الشعوب الإسلامية في التفكك والانهيار، ولم يظهر لهؤلاء العلماء أثر في دفع البلاء، قبل إعضاله، بل كانوا أعواناً له وكانوا بعض أسبابه.

وإنما نحدد هذا التحديد متساهلين .. وإن كان المرض ممدود الجذور إلى ما قبل ذلك الحد من القرون[1]؛ ولكن المرض لم يصل إلى درجة الإعضال إلا في المائة العاشرة وما بعدها، أما عصرنا فهو آخر الدَّن، وآخر الدَّن دُرْديّ[2] كما في المثل.

وإن الناظر في تاريخ العلم الديني الإسلامي يرى أن طوره الأول كان علماً متيناً، وعملاً متيناً، وأن طوره الوسط كان علماً سميناً وعملاً هزيلاً، أما طوره الثالث والأخير فلا علم ولا عمل، إنما هو تقليد أعمى، ونقل أبكم ، وحكاية صماء، وجفاف جاف، وجمود جامد، وخلاف لا يثبت به حق، ولا ينفى به باطل، ولا تتمكن به عقيدة، ولا تثبت عليه عزيمة، ولا تقوى عليه إرادة، ولا تجتمع معه كلمة، ولا ينتج فيه فكر، ولا تستيقظ معه عزة، ولا تثور كرامة، ولا تتنبَّه رجولة ولا نخوة؛ لأن الشخصية فيه

---

(١) لعله يشير إلى الفترات التي سيطر فيها التصوف القبورية والإرجاء على كثير ممن ينتسب إلى العلم في أمور العقائد، والتقليد المقيت لآراء الفقهاء المتأخرين التي لم تستنير بنور الوحيين.

(٢) يعني : أن العكر يكون في آخر الشيء . انظر : المحيط في اللغة (٢٩/١)، الصحاح في اللغة (١ /٤٨٨) ، مختار الصحاح (١ /٢١٣) ، المحكم والمحيط الأعظم (٩٢/١) ، تهذيب اللغة (٨٩/١) ، المغرب (١/٤) ، لسان العرب (٤/ ٥٩٩)، تاج العروس (٣٢٣٤/١).

مـوؤدة، والـروح المستقلة معـه مفقـودة، إنمـا هـو تواكـل يسـمونه توكلاً، وتخـاذل يسكنونه بالحوقلـة والاسترجاع، وخـلاف ممـزق لأوصـال الدين يسمونه رحمة.

وإننا لا نعني بالعمل الذي جرى في كلامنا ما يفهمه المتخلفون الفارغون، ولكننا نعني به العمل لإعزاز الدين واعتزاز أهلـه بـه، والأمر بالمعروف حتى يتمكن، والنهي عن المنكر حتـى لا يكـون لـه بـين المسلمين قرار، وحراسـة المجتمـع الإسـلامي أن يطرقـه طارق الاختلال، أو يطوف بـه طـائف الضـلال، وجمـع المسلمين على هداية القرآن.

أذلَّ الطمعُ أعناقَ علماء الخلف، وملكت الوظيفة عليهم أمرَهم، وجرَّتْ عليهم الأوقاف المذهبية كل شر، فهي التـي مكنـت لنزعـة التقليد في نفوسهم، وهي التي قضـت علـى ملكـة النبـوغ واستقلال الفكـر فيهم، وهـي التـي طبعـتهم علـى هـذه الحالـة الذميمـة، وهـي معرفة الحق بالرجـال، وهـي التـي ربطـتهم حتـى فـي أحكـام الـدنيا وأوجه الحياة ـ بالقرن الثاني لا في قوته وعزتـه وصـولته بـل فـي حبس ركـاب عنده، وتعطيـل دوران الفلـك العقلـي بعـده، ولـذلك لـم يسـايروا الـزمن، ولـم يربطـوا بـين حلقاتـه، فعاشـوا بأبـدانهم فـي زمـن، وبأذهـانهم فـي زمـن، وبـين الـزمنين أزمنـة تحركـت، وهـم ساكنون، ونطقت، وهم ساكتون.

لو أن صلاح الدين يوسف بـن أيـوب كـان مصـلحاً اجتماعيـاً أو دينياً مع ما تهيَّأ لـه من القيمة الحربية ـ لمـا نقل حالـة الأزهـر مـن مذهب واحد إلى مذاهب أربعة[١]، بل كان ينقلـه مـن ذلـك المـذهب

---

(١) في عهد صلاح الدين الأيوبي ـ رحمه الله ـ بنـى مدرسـة للشـافعية بجـوار مسـجد عمـرو ومدرسـة أخـرى للمالكيـة عرفـت باسـم (دار الغـزل) ثـم عرفـت بالمدرسـة القمحيـة، ثـم بنـى مدرسـة ثالثـة للفقهـاء الحنفيـة سـماها (المدرسـة السـيوفية) كمـا أنشئت مدارس أخرى لفقهاء المذهب الشـافعي خاصـة، وهـو المـذهب الـذي كـان عليـه أكثـر أفـراد البيـت الأيـوبي. انظـر: الأزهـر فـي ألـف عـام ، للـدكتور محمـد خفاجي ١/٨٣-٨٤.

الواحد الفرعي إلى أصل الأصول وهو الكتاب والسنة، ولو فعل لأراح المسلمين من شرور الخلافات المذهبية، ولوجد جميع ملابساته أعواناً له على ذلك؛ لأن مصر كانت بمكان صلاح الدين فيها هي كل شيء ، وقد سئمت من المذهب الشيعي لغموضه وتناقضه[١]، ولما تكشف عنه الحاكم من سوءات، ولأن بغداد كانت مشغولة بنفسها عن نفسها، ولأن الشام وعواصمها كانت مغمورة بالحملات الصليبية، ولأن الأندلس والمغرب لم يتغلغل فيهما التعصب المذهبي كما تغلغل في الشرق، فلو أن صلاح الدين ضرب الضربة القاضية ورجع بالناس إلى المذهب الجامع ثم جاءت انتصاراته المدهشة على الصليبيين لأصبح بذلك صاحب مذهب متبع في الإسلام، ولكنه ـ عفا الله عنه ـ لم يكن رجل هذا الميدان فلم يزد على أن وسع التكيَّة[٢] للقعدة، وشيد الضريح للفكر، وأبعد القافلة عن صراط السنة السوي، ومكن للخلاف، وأنقذ الأزهر من شيعة ليسلط عليه شيعاً، ويا ليت كاتبه ووزيره القاضي الفاضل المفتون بالتجنيسات والمزاوجات والمطابقات أشار عليه بما يشبه مذهبه في الأدب، وهو أن ينقل الأزهر من الباطنية إلى الظاهرية.

نقرأ في سير العلماء من السلف أن فلاناً عرض عليه الخليفة أو الأمير منصب القضاء فأبى وألح في الإباء ، فلجّ الوالي في العرض فلجَّ العالم في الإباء حتى ينتهي به إلى غضب الخليفة، وما يتبع الغضب من آثار منها الضرب والحبس، أو ينتهي به الحال إلى الفرار والاختفاء، يأتي كل ذلك فراراً من فتن الولاية ولوازمها، كالتردد على أبواب السلاطين، وتعريض سلطان العلم لسلطان الحكم، وفراراً من المطاعم الخبيثة التي مهما تتسع لها دائرة الإباحة فإنها لا تطهرها من شوب الشبهات .

(١) وخرافيته وخروجه عن حقيقة الإسلام والإيمان.
(٢) مكان للصوفية يمارسون فيه بدعهم.

فهل من يدلنا اليوم على عالم تُعرض عليه ولاية القضاء أو ما دونها في المنزلة فيأباها تعففاً وتحوباً مسوقاً إلى ذلك بخوف الله وخشيته، أو بالترفع عن الشبهات؟

كلا؛ إنهم لا ينتظرون عرض الولاية عليهم، بل يخطبونها ويبذلون فيها الغالي من المهور، وهو الدين والشرف والكرامة، ويتوسلون إلى نيلها بالدنيء من الوسائل، كالتوجه بالكافر والفاجر، والتشفع بالمهين والعاهر، ودفع الرشى، وهي أشنع الجميع؛ لأنها شهادة مقدمة على أنه سيرتشي ليسدد الدَّين.

ونقرأ في سيرهم أيضاً أنهم كان حين يتولون الولاية يؤدونها كما أمر الله أن تؤدى، ويوفون بعهد الله فيها من العدل والتحري في الحق، وكانوا لا يقبلون الولاية إلا على اعتقاد أن قبولهم إياها واجب متعين شرعاً لإقامة القسط بين الناس، وإنصاف الضعفاء من الأقوياء، فهم دائماً في أداء واجب يؤجرون عليه لا في أداء وظيفة ينتفعون بها.

وارجع إلى وظائف العالم الديني الأخرى غير الولاية، فلتجدنهم فرطوا فيها وأضاعوها، معتذرين بتأويلات ما جاء بها الدين ولا عذر بها(١)، فهم قد هدموا ركناً من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، راضين لأنفسهم بأضعف الإيمان.

وأنا لا أصدقهم حتى في هذه، إذ لا يخطر الباطل ولا المنكر لهم على بال حتى يغيروه بقلوبهم ، وكيف يخطر المنكر ببالهم، وقد أصبح المنكر عندهم معروفاً، والباطل حقاً، والشرك توحيداً، والبدعة سنة، وعميت عليهم السبل، واختلطت الحقائق.

هم لا يذكّرون أمة محمد، وإذا ذكروها لا يذكّرونها بالقرآن

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦٨/١) في تفسير قوله تعالى : + أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ " .

كما أمر الله نبيه ، بل يذكرونها بمرغبات ومرهبات لم تأت على لسان صاحب الشريعة، ولم تتفق مع مقاصد شريعته، يزهدونها في العمل للآخرة بما شرعوه لها من أعمال بدعية، ويزهدونها في العمل للدنيا بما يفترون على رسول الله من أحاديث في ذم الدنيا وبما أثر عن شواذ الصوفية الهادمين لحقائق الدين ببدع التبتل الدَّعيِّ، والانقطاع الكاذب عن الدنيا، وبذاك أضاعوا على الأمة دينها ودنياها، وأوصلوها إلى هذه الحالة التي نشاهدها اليوم، وما زال كثير منهم مصراً على تذكير الأمة بما ينسيها الله، وعلى علاج حُمَّاها بالطاعون.

أرأيت لو كان علماء الدين قائمين بواجب التذكير بالقرآن، مؤدِّين لأمانة الله، راعين لعهده في أمة محمد، أكانت الأمة الإسلامية تصل إلى هذه الدركة التي لم تصل إليها أمة؟ فهي كثيرة العدد تبلغ مئات الملايين، ولكنها غثاء كغثاء السيل.

واجب العالم الديني أن ينشط إلى الهداية كلما نشط الضلال، وأن يسارع إلى نصرة الحق كلما رأى الباطل يصارعه، وأن يحارب البدعة والشر والفساد ، قبل أن تمد مدها ، وتبلغ أشدها، وقبل أن يتعودها الناس فترسخ جذورها في النفوس ويعسر اقتلاعها.

وواجبه أن ينغمس في الصفوف مجاهداً ولا يكون مع الخوالف والقَعَدة، وأن يفعل ما يفعله الأطباء الناصحون من غشيان مواطن المرض، لإنقاد الناس منه، وأن يغشى مجامع الشرور لا ليركبها مع الراكبين بل ليفرق اجتماعهم عليها.

وواجبه أن يطهِّر نفسه قبل ذلك كله من خلق الخضوع للحكام والأغنياء وتملقهم طمعاً فيما بأيديهم، فإن العفة هي رأس العالم فإذا خسرها فقد خسر كل شيء، وخلفها الطمع فأرداه.

إن علماء القرون المتأخرة ركبتهم عادة من الزهو الكاذب والدعوى الفارغة، فجرّتهم إلى آداب خصوصية، منها أنهم

يلزمون بيوتهم أو مساجدهم كما يلزم التاجر متجره، وينتظرون أن يأتيهم الناس فيعلّموهم، فإذا لم يأتهم أحدٌ تسخطوا على الزمان وعلى الناس، ويتوكؤون في ذلك بكلمة إن صدقت في زمان فإنها لا تصدق في كل زمان وهي: «**إن العلم يُؤتى ولا يأتي**».

وإنما تصدق هذه الكلمة في علم غير علم الدين، وإنما تصدق بالنسبة إليه في جيل عرف قيمة العلم فهو يسعى إليه، أما في زمننا وما قبله بقرون فإن التعليم والإرشاد والتذكير أصبحت باباً من أبواب الجهاد، والجهاد لا يكون في البيوت وزوايا المساجد، وإنما يكون في الميادين، حيث يلتقي العدو بالعدو كفاحاً، وقد قال لي بعض هؤلاء وأنا أحاوره في هذا النوع من الجهاد، وأعتب عليه تقصيره فيه: إن هذه الكلمة قالها مالكٌ للرشيد.

فقلت له: إن هذا قياس مع الفارق في الزمان والعالم والمتعلم، أما زمانك هذا فإن هذه الخلة منك ومن مشائخك[1] ومشائخهم أدت بالإسلام إلى الضياع وبالمسلمين إلى الهلاك.

فالشبهات التي ترد على العوام لا تجد من يطردها عن عقولهم ما دام القسيسون والأحبار أقرب إليهم منكم، وأكثر اختلاطاً بهم منكم، والأقاليم الأفرنجية تغزو كل يوم أبنائي وأبناءك بفتنة لا يبقى معها إيمان ولا إصلاح، ففي هذا الزمن يجب علي وعليك وعلى أفراد هذا الصنف أن نتجنّد لدفع العوادي على الإسلام والمسلمين، حتى يأتينا الناس، فإنهم لا يأتوننا وقد انصرفوا عنا وليسوا براجعين، وإذا كان المرابطون في الثغور يقفون أنفسهم لصد الجنود العدوة المغيرة على الأوطان الإسلامية، فإن

---

(١) مشايخك هي الصواب ، ومشايخهم كذلك دون همز. والظن بالشيخ أنه قصد همزهم ولمزهم قصداً نظراً لواقع الحال لا نظراً إلى اللغة. وكما قيل: المشايخ الربانيون لا يهمزون حساً ولا معنى. أما مشايخ الضلالة فيهمزون، بل ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.
وقد تقدم استعمال الكلمة على الصواب ص٢١(مشايخهم .. المشايخ) . وانظر ترجمته المتقدمة ص٤ لتعلم أين هو من علم العربية.

وظيفة العلماء المسلمين أن يقفوا أنفسهم لصد المعاني المغيرة على الإسلام وعقائده وأحكامه، وهي أفتك من الجنود؛ لأنها خفية المسارب، غرارة الظواهر، سهلة المداخل إلى النفوس، تأتي في صورة الضيف فلا تلبث أن تطرد رب الدار.

فَقَدَ علماءُ الدين مركزَهم يوم أضاعوا الفضائل التي هي سلاح العالم الديني، وأمهاتها الشجاعة والقناعة والعفة والصبر.

وإن تجردهم من هذه الفضائل ليرجع في مبدأ أمره إلى خدعة من أمراء السوء المتسلطين حينما ثقلت عليهم وطأة العلماء وقيامهم بالواجب الديني في الأمر والنهي، وعلموا أن العامة تبع للعلماء، وأن سلطان العلماء أقوى من سلطانهم، وأن كلمة مؤثرة من عالم مخلص تقع في مستقر التصديق من العامة قد تأتي على سلطان الحاكم المتسلط، فسولت لهم أنفسهم أن يحدوا من هذا التأثير الواسع القوي، فأخذوا يُروِّضون علماءَ الدين على المهانة، وألصقوا بهم الحاجة إلى ما في أيديهم من متاع الدنيا، ليجعلوا من ذلك مقادة يقودونهم بها إلى ما يهوون، ثم ربوهم على الطمع والتطلع إلى الاستزادة، ومد الأعين إلى زهرة الحياة الدنيا، فزلُّوا ثم ضلُّوا ثم ذلُّوا.

وتعاقبت الأجيال وتقلبت الأحوال، فإذا العالم الديني تابع لا متبوع، ومقود بشهواته لا قائد، يراد على العظائم فيأتيها طائعاً، يتحيل على دين الله إرضاءً للمخلوق، ويحلل ما حرم الله من دماء وأموال وأعراض وأبشار، يشتري بذلك جاهاً زائلاً، وحائلاً حائلاً، ودراهم معدودة.

ومن الكيد الكُبّار الذي رمى به الأمراءُ المستبدون هؤلاء العلماء الضعفاء في العصور الأخيرة أنهم يعفونهم من الجندية

التي هي حلية الرجال .

وإن في قبول العلماء لهذا الإعفاء، وسعيهم له لشهادة يسجلونها على أنفسهم بفقد الرجولة؛ وقد استطابوا هذا الإعفاء، وأصبحوا يعدونه تشريفاً لهم، وتنويهاً بمكانتهم، ومعجزة خصوا بها، ودليلاً تقيمه الحكومات الإسلامية على احترامها للعلماء!!

فهل يعلمون أن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الملوك الصالحين ما كانوا ليُعفوا عالماً من بعوث الجهاد والفتح؟ وما كان مسلم فضلاً عن عالم ليطلب الإعفاء أو يتسبب له أو يرضى به لو عرض عليه، بل كانوا يتسابقون إلى ميادين الجهاد، والعالم الديني - دائماً - في المقدمة لا في الساقة، ولقد كانوا يعدون الاعتذار عن الخروج من سمات المنافقين.

أيها العلماء :

هذا قليل من مساوينا، فلا تظنوا أني متجنٍّ أو متزيد، كونوا منصفين للدين من أنفسكم، إني أحاكمكم إلى ضمائركم حين تستيقظ فيها معاني الإرث النبوي والاستخلاف المحمدي.

أليس من الحق أن هذه المساوئ ومثالها معها مجتمعة فينا؟
ألسنا نأمر الناس بالجهاد ثم نكون مع الخوالف ؟
ونأمرهم ببذل المال في سبيل البر ثم نقبض أيدينا ؟
كأن الجهاد بالنفس والمال - وهو ثمن الجنة - لم يكتب علينا.

إنني - يا قوم - أعتقد أن أقسى عقوبة عاقبنا بها الله على خذلنا لدينه هي أنه جرَّد كلامنا من القبول والتأثير، فأصبح كلامنا في أسماع الجيل القديم مستثقلاً، وفي أسماع الجيل الجديد مسترذلاً، ومن ظن خلاف هذا فهو غِرٌّ أو مغرورٌ أو هما معاً.

أصبحنا في أمَّتنا غرباء تزدرينا العيون، وتتقاذفنا الظنون؛ لأننا أصبحنا كالدراهم الزيوف، فيها من الدراهم استدارتها ونقوشها، وليس فيها جوهرها ومعدنها.

محمد البشير الإبراهيمي

فهرس الموضوعــــات

*   *   *